



obeikandi.com

حق الأمانة على المؤرخ فى هذه المرحلة من التاريخ الإسلامى الذى يرجع
بينه وبين ضميره طائفة من الحقائق البديهية، قبل أن يستقيم له الميزان الصادق
لتقدير الرجال بأقدانهم وتقويم المناقب بقيمتها.

ومن هذه الحقائق البديهية أن الأموال التى بذلها معاوية المأجورين من
حواله لم تبدل لتعريف الناس بحسناته وسيئاته كما يعرفها من لم يؤجر بمال
ولم يتصل معه بسبب.

ومن هذه الحقائق البديهية أن سلطان معاوية يدخل فى الحساب حيث
يؤوب الباحث إلى ذلك الزمن ليفرق بين ما يقال عن صاحب السلطان وما
يقال عن رجل يحاربه السلطان فى سمعته وذكره.

ومن الحقائق البديهية تواطؤ الزمن على إقرار ما قيل وتكرر وطال
وقوعه فى الأسماع حتى لتكاد تنفر من تغييره لو عرض لها فيه شئ من
التغيير، وحتى لتكاد تعجز عن النافذ إلى الحقيقة لو رغبت فى ذلك التغيير
لسبب من الأسباب، وقلما تعرض هذه الأسباب لمن لا يعينهم تمحيص ما
يقال فى الساعة الراهنة فضلا عما يقال ويعاد منه مئات السنين.

ومن الحقائق البديهية أن المحاباة تأتى بتوافق الطباع كما تأتى بالغرض
والرشوة، فلا يسهل على الإنسان نقد صفة يعلم أنه منتصف بمثلها، واستنكار
وسيلة يعلم أنه لا يستكرها ولا يأبى النجاح إذا توسل بها إليه.

ومن الحقائق البديهية أن المحاباة تأتى من جهات لم تخطر للمنتفع
بمحاباتها على بال.

فالدولة الأموية فى الأندلس أنشأت للشرق الإسلامى تاريخاً لم يكتبه
مؤرخوه ولا يكتبونه على هذا النحو لم أنهم كتبوه، وجاءت تلك الدولة
الأندلسية بمؤرخين من الأعلام ينصبون الميزان راجحاً لكل سيرة أموية لا

يقصدونها بالمحابة ولكنهم لا يستطيعون أن يقصدوها بالنقد والملامة لأنهم مصرفون بهواهم عن هذا الطريق .

من هؤلاء أناس في طبقة ابن خلدون، يضع معاوية في ميزانه فيكاد يحسبه بقية الخلفاء الراشدين ويتحمل المعاذير له في إسناد ولاية العد إليه مع فسوقه وخلل سياسته وكرهه الناس لحكمه حتى من أبناء قومه .

ولا يهولن قارئ التاريخ اسم ابن خلدون فيذكره وينسى الحقائق البديهية التي لا تكلفه أكثر من نظرة مستقيمة إلى الواقع الميسر لكل ناظر في تواريخ الخلفاء الراشدين وتاريخ معاوية .

فما في وسع ابن خلدون أن يخرج من هذه التواريخ بمشابهة بعيدة تجمع بين معاوية والصدى والفاروق وعثمان وعلى في مسلك من مسالك الدين أو الدنيا وفي حالة من أحوال الحكم أو المعيشة، وأنه لفي وسع كل قارئ أن يجد المشابهات الكثيرة التي تجمع بين معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان وهشام، فلا يفترون فيها إلا بالدرجة والمقدار، أو بالتقديم والتأخير .

وإذا كان هذا شأن ابن خلدون على جلالة قدره فقل ما شئت في سائر المؤرخين وسائر المستمعين للتواريخ، و الزمن مشاركة شهدوا زمان الدولة ومشاركة لم يشهدوه، ومن مغاربة عاشوا في ظل تلك الدولة، وتعلقت أقدارهم بأقدارها، وأيقنوا أنهم لا ينقصون منها شيئاً ثم يستطيعون تعويضه من الأندلس بما يغنيهم عنه، وما زال العهد بالمنبت عن أرومته أن يلصق بها أشد من لصوق القائمين عليها .

إذا روجعت تلك الحقائق في ميزان التاريخ فقد ذهب من الكفة كل ما زيد عليها في إبان الدولة وكل ما علق بها من تواطء الزمن وتكرار العادة وكسل السامع من مشقة المراجعة وانتزاع الفكر مما ألفه ولم يألف سواه .

لقد تمهدت لمعاوية أسباب لم تتمهد في عصره لأحد غيوه من قبل الإسلام، وفي صدر الإسلام إلى أيام عثمان.

ولم يكن مفرطاً أو عاجزاً فلم يضيع ما تمهد له بجعله لا تؤمن غفلتبتها، أو بتقصير عن الفرصة في أوانها.

وكان له دهاء وحلم، وكان فيه طموح واعتداد بالنفس وسمنة من سمات الرئاسة.

وكان له من كل أولئك قدره الذي أعانه على مقصده كما أعين بغيره.

فكان في يديه من المال والجنود وسلطان الولاية ما لم يكن في أيدي أحد من نظرائه ومنازعيه، ولولا ذلك لما أفاده دهاؤه مع أعوانه من الدهاة، لأنه لم يغلبهم بعقل غالب ولم يصرفهم عن مقصدهم إلى مقصده، بل خدمهم وخدموه، ولو لم يكن عنده ما يطلبونه لخدموا غيره أو نازعوه على سواء، وربما نازعه بعضهم على رجحان.

وكان له حلم أو شك أن يحرمه عزة الرئاسة، ولكنه حلم من لا يغضب وليس بحلم من يغضب ويملك عنان غضبه، فسيان أن يركب غضبه بعنان أو بغير عنان، فإنه في غنى عن قوة الساعد مع ميطة لا تثور ثورة الجساح في كل حين.

وكان له طموح إلى السيادة، ولكنه طموح الألفة والعادة، ورثه مع جباه الأسرة ولم يخلق فيه بتلك الخليقة "الحيوية" التي يطبع عليها العصاميون، فكأنما هي جزء من التركيب وليست وجهة من وجاهات البيت العريق يطلبها كما يطلب الميراث.

وإذا وزنت قدرة معاوية بميزان النجاح حصل من نجاحه في كفة الميزان حاصل قليل يهون شأنه مع أثقال الكفة الأخرى من الجهود والشواغل والهجوم.

فقد أراد الملك له ولبنيه، ولم يرده لبني أمية أجمعين، لأنه فرق بينهم ما اجتمع وأغرى أناساً منهم بأناس ولم يعمل عمله إلا ليتركه من بعده لعشيرته من بني سفيان.

فلم يخلفه من ذريته غير يزيد، ذهب يزيد في عنفوانه بداء الجنب فلم يخلفه أحد من ولديه.

وتبعه معاوية في عاقبة ولي عهده الذى خرق الخوارق من أجله أعظم جداً من سمعته في توريثه الملك وتوريث أبنائه من بعده. فقد جنت عليه تلك الخليفة الأموية فلم يعرف من البر بالأبناء غير الإملاء لهم في النعمة والمتاع، وما كان يزيد ليقصد في مطاعنه ومناعمه وهو يظن إلى قدوة سبقتة إلى تلك المظاعم والمناعم، وسبقتة إلى تديبرها له كلما استعصت عليه، ولم يم تكن من الشهوات التى يقضيها الآباء للأبناء.

إن ذات الجنب مرض من أمراض الكبد، وأمراض الكبد قضاء حتم على المنهوم بطعامه والمفرط فى شهواته، قد صنع معاوية ليزيد هذا وصنع له ذاك: صنع له عدة النعمة والمتعة ووضع له عدة الملك والسلطان، وما يحسب له من هذا دون ما يحسب من ذاك، وكلاهما لا يحسب فى ميزان رجيح.

وخرج معاوية من الملك بالأيام التى قضاها فى نعمته وراثته، ولا نقول فى صولته وعزه، فقد كان يذل لكل ذى بيعة منشودة ذلاً لم يصبر من بايعوه على مثله، ولو وزن ما احتمله فى سبيل بيعتهم وما احتملوه فى سبيل طاعته لكان ما احتمله هو أثقل الكفتين.

أما تبعته العامة فى الملك فأمر جسيم لا تعد له جسامة عمل فى عصره، لأنه نكص بالملك خطوات، وكان فى ميسوره أن يتقدم به خطوات تزيد عليها، مع ما بين الخطوة الناكصة والخطوة المتقدمة من بون بعيد.

لم يكن في ميسوره أن يديم على الدولة خلافة كخلافة الصديق أو خلافة الفاروق .

ولكن كان في ميسوره أن يجنبها الكسروية والهرقلية وأن يجعل للخلافة أثراً باقياً في ولاية الأمر، إن لم يصمد على سنة الراشدين لم يصمد على سنة الملك العقيم .

ولو أنه أنشأ هذا الملك في الدولة الإسلامية والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبه من اللوم وهان حق التاريخ وحق العالم الإسلامي، والعالم الإنساني، عليه .

غير أن الناس عرفوا في زمانه فارقاً شاسعاً بين ولى الأمر الذى يتخذ الحكم خدمة للرعية وأمانة للخق والخالق، وشريعة لمرضاة الناس بالحق والإنصاف، وبين الحكم الذى يحاط بالأبهة ويجرى على سنة المساومة ويملى لصاحبه فى البذخ والمتعة ويجعله قدوة لمن يقتدون به فى السرف والمغلاة بصغائر الحياة .

كان الرجل من النصحاء يدخل عليه كأنما ييكته فيسلم عليه بالملك ولا يسلم عليه بالخلافة .

وتتابع عليه فى أيامه الأولى من يقول له: السلام عليكم أيها الملك! . فكان يكر الاسم ولا ينكر السمة، إلى أن تنازعه الخيار بين ترك السمة أو التماذى فيها، فتماذى فيها وقال جهرة لمن حوله من الراضين أو المنكرين: نعم أنا أول الملوك!

وتبعته فيما شجر بعده من خلاف توازن تبعته فى هذا الخروج بولاية الأمر من ورع الخلافة إلى أبهة الهرقلية والكسروية .

فما كان من المعقول، ولا من طبائع الأمور، أن تذر فى الأرض كل تلك البذور من جرائم التفارقة ثم تسلم الدولة من عقابيلها أو تظل

التفرقة سنداً لصاحب الأمر مئآت السنين كما كانت سنداً لمعاوية سنوات معدودات .

تبعات يحسب حسابها العسير إن كان للتاريخ جدوى يحرص عليها، وكان لشرف الذكر وزن يقام .

وليست جدوى التاريخ هنا كلمة مدح تنقص أو تزداد، وإنما جدواه أن يسان الذكر عن الابتذال وهو أشرف ما تملكه الإنسانية من تشریف أبنائها فى الحياة ويعد الممات، فلا يباح عرض الإنسانية لكل من يملك طعاماً يملأ به البطون أو ملا يملأ به الجيوب، لا يختلط الحق بالباطل ثم تذهب الخيلة فيه وتثوب العقول والضمائر إلى التسليم، ويتساوى الجوهر والطلاء فى ميزان الخلود والبقاء .

ومعاوية بن أبى سفيان فى هذا الميزان، لا يخرج منه مغبوناً ولا غابناً للحقيقة من بعده، وإنما تحسب له قدرته بتقدير، ويعطى من أثر قدرته، ومن أثر نيته، ما هو به حقيق .

وقد عمل بتلك القدرة ما أفاد وأفاد قومه وأفاد الأمم التى تولاها فيما تستفيده من قرار الدولة و"ضبط" الأ/ور . وذلك حق القدرة الذى لا حاجة معه إلى اللجاجة فى أمر النية، فلو أن أحداً أراد أن يمحو من سجله كل ما عمله لنفسه ولبنيه لما بقى فى ذلك السجل لعمل واحد تطول فيه اللجاجة حول النيات .

ونعود فنقول أنها قدرة لا ترسل على إطلاقها بغير تقدير، وأن تقديرها الحق أنها غاية القدرة إلى الشوط القصير .

لقد كان قوياً لا مشاحة فى وصفه بالقوة على مثالها، ومثالها أنك تصوغها فى خيالك على صورة من الصور، فتحضرك صورة الجمل الصبور ولا تحضرك صورة الأسد الهصور .